

نفر الدين باشا

حارس المدينة الأخير



Joyline

نحر الدين باشا

حارس المدينة الأخير

تستند هذه القصة إلى أحداث تاريخية، وقد صيغت مشاهدتها والحوارات غير المنسوبة إلى مصادر صياغة أدبية تخيلية.

حلّ الليل في المدينة. هدأت الشوارع، وانطفأت أنوار البيوت واحداً تلو الآخر. كان جندي يسير بخطى متعبة إلى موقع حراسته. توقف فجأة. رأى على مقربة منه رجلاً واقفاً منتصب القامة. كان وجه الرجل ذي الزي العسكري شاحباً، لكن نظراته ظلت حازمة.

«باشا... ألم تسترح؟»

التفت نحر الدين باشا. «أخبرني أنت أولاً. كيف حال زميلك في الحراسة؟»

«الجنود متعبون يا باشا. إنهم ينتظرون الأخبار.»

نظر الباشا نحو المسجد النبوي. هناك كان قبر نبينا الكريم. كانت هذه المدينة وسط الصحراء محاصرة. طرق المدد تغلق، والطعام يتناقص، وكل يوم جديد يأتي بمشقة أخرى.

قال: «سأتي إليهم صباحاً.» ثم أعاد نظره إلى الظلام. في تلك الليلة، لم ينم الجميع في المدينة. وكان حارسها أيضاً قائماً على حراسته.



حين وصل نحر الدين باشا إلى المدينة، كان جندياً متمرساً. أمضى سنوات طويلة في الخدمة، وتعلّم أن الحرب لا تروىها الأسهم على الخريطة وحدها. فقد يستغرق طريق يبدو قصيراً عليها أياماً من سير الجنود. وقد يترك تأخر كيس مؤن موائد مئات الناس خاوية.

أُرسل إلى المدينة عام 1916. كان العالم في خضم حرب كبرى. وكان أمير مكة، الشريف حسين، يستعد للثورة على الحكم العثماني بدعم بريطاني. وسرعان ما بدأت الهجمات على سكة الحديد وخطوط البرق، ثم استهدفت المخافر حول المدينة.

أسرع نحر الدين باشا في إعداد الدفاعات. فُحصت المواقع، وأُرسلت الوحدات إلى أماكنها. صدّت الهجمات الأولى، لكن الباشا أدرك أن الصراع لن يكون قصيراً. لقد بدأت للمدينة نوبة حراسة طويلة، طويلة جداً.



كان الباشا منحنيًا فوق طاولة القيادة. على الخريطة أمامه علامات للطرق والمحطات ومواقع الدفاع. كل خبر يصل يقتضي قرارًا جديدًا. تضررت القضبان في مكان، وتعرضت دورية لهجوم في آخر. قال أحد الضباط: «إذا أُغلق هذا الطريق، فلن يمر القطار.»

تتبع نخر الدين باشا الخط على الخريطة بإصبعه. كان لذلك الخط الرفيع معنى كبير. فالقطار لم يكن ينقل الجنود وحدهم. كان يأتي بالدقيق والدواء ورسائل العائلات البعيدة.

كُلِّفَ فرق بالإصلاح ووحدات بالحماية. وصار إبقاء السكة مفتوحة في الصحراء معركة بحد ذاته. وكانت الهجمات التي يدعمها أيضًا الضابط البريطاني لورنس تضعف صلة المدينة بالعالم خارجها. وفي كل مرة يصل قطار إلى المحطة، كانت المدينة تستقبله كأنه نفس جديد.



كانت في المدينة أيضاً أمانات نفيسة تستحق الحماية. وهي أشياء بقيت من عهد نبينا الكريم ومن القرون التالية، تحفظ ذكراه. منها مصاحف قديمة مخطوطة وأشياء ثمينة أهديت إلى المسجد النبوي. كان الناس يصونونها بحبة وعناية كبيرتين، ويسمونها «الأمانات المقدسة».

خشي نخر الدين باشا أن تتضرر هذه الأمانات في الحرب. اجتمع المسؤولون حول الصناديق. فحص كل غرض بعناية، وسجل في قائمة، ووضع بما يحويه من التلف في الرحلة.

نظر أحد المسؤولين مجدداً إلى قائمته. «لنتحقق مرة أخرى يا باشا.»
أوماً الباشا برأسه. لم يكن في عمل كهذا مجال للعجلة. كانت الصناديق تحمل ذكريات ثمينة وصلت إليهم من الماضي.

أُرسلت الأمانات إلى إسطنبول تحت حراسة الجنود. وبينما ابتعد القطار، بقي نخر الدين باشا في المدينة. كانت الصناديق قد انطلقت إلى مكان آمن، لكن المدينة التي تضم قبر نبينا الكريم ما زالت تنتظر حراسته.



ثم تباعدت مواعيد القطارات. كان المنتظرون في المحطة ينظرون أولاً إلى الأفق، ثم يصغون إلى القضبان. أترى يسمعون صوت قاطرة مألوفاً؟ وكلما تأخر القطار المنتظر، ازداد القلق في المدينة.

ذات صباح، وضع مسؤول المؤن دفتر الحسابات أمام الباشا. تناقص الدقيق، وبات توزيع الطعام يتطلب مزيداً من الحرص. صغرت الحصص على الموائد ذلك اليوم. ولم يأكل بعض الجنود خبزهم كله فوراً، بل ادخروا منه قطعة لوقت لاحق.

صار أمام نخر الدين باشا أمران كبيران مترابطان: مواصلة الدفاع وإبقاء الناس قادرين على الصمود. كان فراغ مخزن يثقل عليه مثل خبر سيئ من الجبهة. ومع امتداد الحصار، أنهك الجوع والمرض الجنود والسكان الباقين في المدينة. وكان لا بد من إعادة حساب موارد المدينة المتناقصة كل يوم.



ذات يوم، قُدِّمَ على مائدة القيادة طعام غير مألوف: الجراد. اشتد نقص الطعام حتى صاروا يبحثون عن مصادر أخرى للغذاء. نظر بعض الجنود إلى الأواني أمامهم بدهشة. تذكروا حساء بيوتهم الساخن وخبزها الخارج لتوه من الفرن.

كان نخر الدين باشا يعاني المشقة نفسها. شجّع على أكل الجراد، وذكر في أحد أوامره أنه أكله هو أيضاً في مقر القيادة.

توقفت الملعقة في يد جندي. نظر إلى رفيقه بجانبه، وكان صامتاً هو الآخر. أحياناً يعجز الجائع عن الكلام. لم تطل الأحاديث على المائدة. كان عليهم أن يستجمعوا قواهم ليقدروا غداً على الحراسة والمشي ومساندة رفيق جريح.

بأيام كهذه امتدت مقاومة المدينة. وراء الجوع الذي تروييه كتب التاريخ في بضعة أسطر، كانت أمسيات شاقة عاشها الناس، كل واحد منهم على حدة.



في الصباح، كانت نوبات الحراسة تتبدل، ويُسأل عن حال المرضى،
وتفحص مواقع الدفاع من جديد. قد يصبح الجندي السليم بالأمس
طريح الفراش اليوم. والحمل الذي سهل حمله بالأمس قد يثقل اليوم على
كتفي رجلين.

وقف نحر الدين باشا عند باب غرفة مريض. وحين حاول الجندي في
الداخل أن يعتدل، أشار إليه بيده.

«لا تنهض. استرح.»

«سأعود إلى وحدتي يا باشا.»

«ستعافي أولاً.»

حين خرج إلى الممر، كانت أخبار جديدة تنتظره. أدوية تتناقص،
وأجساد تضعف، وأمل في المدد يبتعد... لم يكن بوسعه أن يزيل شيئاً
من ذلك بمجرد صوت قوي. ومع ذلك، ظل يحاول تنظيم مهام جنوده
والحفاظ على قدرتهم على الصمود.

وتروي الدراسات التاريخية المستندة إلى وثائق بريطانية أيضاً عزمه
الشديد على المقاومة. لم يكن حارس المدينة عقبة يسهل تجاوزها في
حسابات القوات التي تواجهه.



ثم وصل من بعيد خبر بالغ الوطأة. خسرت الدولة العثمانية الحرب، ووقعت هدنة مودروس في 30 أكتوبر 1918. وكان الاتفاق يقتضي استسلام القوات في المدينة أيضاً.

حين قرئ الخبر في مقر القيادة، لم يبادر أحد بالكلام. خفض ضابط عينيه إلى الطاولة. بدل المدد الذي انتظروه شهوراً، صارت تصل أوامر تطلب منهم ترك المدينة.

كان الرحيل عن المدينة أصعب قرار على نحر الدين باشا. وتثقل المصادر قوله حين طرحت مسألة الإخلاء من قبل: «لا أستطيع أن أنزل العلم التركي من قلعة المدينة بيدي.»

حتى خبر انتهاء الحرب لم يمهله مقاومة فوراً. واصل الدفاع أمام الدعوات إلى الاستسلام. وبينما سكنت الأسلحة في الجبهات البعيدة، استمر الانتظار في المدينة.



مضت الأيام. وكل يوم جديد كان ينقص ما بقي لديهم قليلاً. أخذت قدرة الجنود على الاحتمال تنفد، وراح الضباط يبحثون عن مخرج. وكان نحر الدين باشا نفسه مريضاً. استقر ثقل المقاومة الطويلة على وجهه وجسده.

ظهر تعلقه بالمدينة حتى في تقارير الجانب المقابل. فقد سُجِّل فيها أن فكرة الدفاع عن قبر نبينا الكريم كانت دافعاً قوياً في مقاومته.

حين كان الباشا يقف قرب المسجد النبوي، بدا كأن ضجيج المدينة كله صار بعيداً. كان يفكر في مجيئه الأول، وفي تبدل الحراس، والقطارات المنتظرة. لم يكن على وشك مغادرة مقر خدمة فحسب. بل كان عليه أن يودع مدينة لها في قلبه مكان عظيم.

لكنه لم يكن قادراً على الرحيل بعد. كانت الخطوات التي ستخرجه من أبواب المدينة أثقل عليه حتى من الدفاع الذي واصله شهوراً.



أخيراً، تفاوض ضباطه على شروط الاستسلام، واضعين في اعتبارهم حال الجنود المنهكين أيضاً. أما نحر الدين باشا، فاعتزل في مدرسة قرب الروضة. لم يكن يريد الرحيل.

في 10 يناير 1919، أخرجه ضباطه أنفسهم من مكانه واقتادوه إلى مقر قيادة الجانب المقابل. لم يكن رحيلاً جمع فيه أمتعته طوعاً وترك المدينة وراءه. ثم سلمت المدينة، وفي 13 يناير دخلتها قوات الشريف عبد الله.

لم يكن أثقل ما حمله الباشا في تلك الرحلة أمتعته التي معه. بل كان في المآذن التي تركها، والمحطة، ومواقع الحراسة، وذكرياته مع جنوده. أخرج من المدينة، لكنه لم يستطع أن يترك وراءه تعلقه بها.

انتهى الدفاع. أما ذكرى حراسته التي امتدت سنوات، فكانت قد بدأت للتو.



أسر نخر الدين باشا، ثم نُقل إلى مالطا. وبعد إطلاق سراحه، عاد إلى بلاده وتولى مهام جديدة. استمرت مسيرة حياته، لكن اسمه ظل يذكر مع المدينة أكثر من أي شيء آخر. ودخل التاريخ بلقب المدافع عن المدينة، أي القائد الذي دافع عنها.

في قصته، لم يصل المدد الكبير المنتظر. ولم ينتهِ الجوع من تلقاء نفسه ذات صباح. ولم يختتم الدفاع بنصر تبقى فيه المدينة بأيديهم. ومع ذلك، لم ينس اسم نخر الدين باشا. فقد تذكر الناس قائداً ظل وفياً لواجبه وللمدينة التي أحبها، حتى في أشد الظروف.

ولو روى ذلك الجندي المتعب الذي حرس المدينة ذات ليلة حكاية باشاه بعد سنوات، لربما بدأ بقوله: «عانى معنا الجوع نفسه. وانتظر الخبر نفسه. وكان هناك حتى اللحظة الأخيرة.»

اضطر إلى مغادرة المدينة؛ لكن المدينة لم تغادر قلبه قط.

